

ردمد
٢٢٢٧-٠٣٤٥
ردمد الالكتروني
٢٣١١-٩١٥٢



ملف العدد
مُسَابَقَةُ الْجُودَا
وَالْحَدِيثِ الْمُنَوَّارَاتِ

الْعَمِيدُ

مَجَلَّةُ فَصَلِيَّةٍ مُحَكَّمَةٌ
تُعْنَى بِالْأَبْحَاثِ وَالدراسَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ

السَّنةُ الثَّالِثَةُ . المجلد الثالث . العدد الثاني
جُمَادَى الْأُولَى ١٤٣٥ هـ / آذار ٢٠١٤ م

الْعَمِيدُ

مَجَلَّةُ فَصْلِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ

تُعْنَى بِالْأَبْحَاثِ وَالدراسَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ

تَصَدَّرُ عَنْ الْعَتَبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ
مُجَازَةً مِنْ وَزَارَةِ التَّعْلِيمِ الْعَالِيِّ وَالبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

جَمْهُورِيَّةُ الْعِرَاقِ

مُعْتَمَدَةٌ لِأَغْرَاضِ التَّرْقِيَةِ الْعَالَمِيَّةِ

السَّنَةُ الثَّلَاثَةُ . المَجْلَدُ الثَّلَاثُ . العَدَدُ الثَّانِي

شَعْبَانُ ١٤٣٥ هـ حَزِيرَانُ ٢٠١٤ م



الترقيم الدولي

ردمد: 2227-0345 Print ISSN:

ردمد الألكتروني: 2311 - 9152 Online ISSN:

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ١٦٧٢ لسنة ٢٠١٢م

كربلاء المقدسة - جمهورية العراق

المجلة في طريقها للحصول على عامل التأثير الدولي

من المركز الدولي للأنشطة البحثية

ISRA

Tel: +964 032 310059 **Mobile:** +964 771 948 7257

<http://alameed.alkafeel.net>

Email: alameed@alkafeel.net





المشرف العام

السيد أحمد الصافي

الأمير العام للعتبة العباسية المقدسة

رئيس التحرير

السيد ليث الموسوي

رئيس قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الهيئة الإستشارية

أ.د. طارق عبد عون الجنابي. كلية التربية. الجامعة المستنصرية

أ.د. رياض طارق العميدي. كلية التربية للعلوم الإنسانية. جامعة بابل

أ.د. كريم حسين ناصح. كلية التربية للبنات. جامعة بغداد

أ.د. تقي بن عبد الرضا العبدواني. كلية الخليج. سلطنة عمان

أ.د. غلام نبيل خاكي. جامعة كشمير. مركز دراسات آسيا الوسطى

أ.د. عباس رشيد الدده. كلية التربية للعلوم الإنسانية. جامعة بابل

أ.د. سرحان جفات سلمان. كلية التربية. جامعة القادسية

أ.م.د. علاء جبر الموسوي. كلية الآداب. الجامعة المستنصرية

أ.م.د. مشتاق عباس معن. كلية التربية. ابن رشد. جامعة بغداد

مدير التحرير

أ.م.د. شوقي مصطفى الموسوي (كلية الفنون الجميلة/ جامعة بابل)

سكرتير التحرير التنفيذي

سرمد عقيل أحمد

سكرتير التحرير

رضوان عبدالهادي السلامي

هيئة التحرير

أ.د. عادل نذير ييري (كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة كربلاء)

أ.م.د. علي كاظم المصلاوي (كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة كربلاء)

أ.م.د. عز الدين الناجح (جامعة منوبة) تونس

أ.م.د. خميس الصباري (كلية الآداب والعلوم / جامعة نزوة) سلطنة عمان

أ.م.د. أحمد صبيح محسن الكعبي (كلية التربية/ جامعة كربلاء)

أ.م.د. حيدر غازي الموسوي (كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل)

م.د. علي يونس الدهش (جامعة سدني) أستراليا

تدقيق اللغة العربية

أ.م.د. شعلان عبدعلي سلطان (كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل)

م.د. علي كاظم علي المدني (كلية التربية / جامعة القادسية)

تدقيق اللغة الإنكليزية

أ.د. رياض طارق العميدي (كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل)

أ.م.د. حيدر غازي الموسوي (كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل)

الموقع الإلكتروني

سامر فلاح الصافي

الإدارة والمالية

عقيل عبدالحسين الياسري

قواعد النشر في المجلة

مثلاً يرحّب العميد أبو الفضل العباس عليه السلام بزائريه من أطراف الإنسانية، تُرَحَّبُ مجلة (العميد) بنشر الأبحاث العلمية الأصيلة، وفقاً للشروط الآتية:

١. تنشر المجلة الأبحاث العلمية الأصيلة في مجالات العلوم الإنسانية المتنوّعة التي تلتزم بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً، ومكتوبة بإحدى اللغتين العربية أو الإنكليزية، التي لم يسبق نشرها.

٢. يقدّم الأصل مطبوعاً على ورق (A4) بنسخة واحدة مع قرص مدمج (CD) بحدود (٥,٠٠٠-١٠,٠٠٠) كلمة، بخط Simpelied Arabic على أن ترقيم الصفحات ترقيماً متسلسلاً.

٣. تقديم ملخص للبحث باللغة العربية، وآخر باللغة الإنكليزية، كلّ في حدود صفحة مستقلة على أن يحتوي ذلك عنوان البحث، ويكون الملخص بحدود (٣٥٠) كلمة.

٤. أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على عنوان واسم الباحث/ الباحثين وجهة العمل والعنوان (باللغتين العربية والإنكليزية) ورقم الهاتف والبريد الإلكتروني، مع مراعاة عدم ذكر اسم الباحث أو الباحثين في صلب البحث، أو أية إشارة إلى ذلك.

٥. يُشار إلى المصادر جميعها بأرقام الهوامش التي تنشر في أواخر البحث، وتراعى الأصول العلمية المتعارفة في التوثيق والإشارة بأن تتضمن: اسم الكتاب، اسم المؤلف، اسم الناشر، مكان النشر، رقم الطبعة، سنة النشر، رقم الصفحة. هذا عند ذكر

المصدر أول مرة، ويذكر اسم الكتاب، ورقم الصفحة عند تكرّر استعماله.

٦. يزوّد البحث بقائمة المصادر منفصلة عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر أجنبية تضاف قائمة بها منفصلة عن قائمة المصادر العربية، ويراعى في إعدادها الترتيب الأبجائي لأسماء الكتب أو البحوث في المجالات.

٧. تطبع الجداول والصور واللوحات على أوراق مستقلة، ويُشار في أسفل الشكل إلى مصدره، أو مصدره، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

٨. إرفاق نسخة من السيرة العلمية إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى، وعليه أن يُشير فيما إذا كان البحث قد قدّم إلى مؤتمر أو ندوة، وأنه لم ينشر ضمن أعمالها، كما يُشار إلى اسم أية جهة علمية، أو غير علمية قامت بتمويل البحث، أو المساعدة في إعداده.

٩. أن لا يكون البحث قد نشر سابقاً، وليس مقدماً إلى أية وسيلة نشر أخرى، وعلى الباحث تقديم تعهد مستقلّ بذلك.

١٠. تعبر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة لموجبات فنية.

١١. تخضع البحوث لتقويم سرّي لبيان صلاحيتها للنشر، ولا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء أقبِلت للنشر أم لم تقبل، وعلى وفق الآلية الآتية:

أ) يبلغ الباحث بتسلّم المادة المرسلة للنشر خلال مدة أقصاها

أسبوعان من تاريخ التسلم.
ب) يخطر أصحاب البحوث المقبولة للنشر بموافقة هيئة التحرير
على نشرها وموعد نشرها المتوقع.
ج) البحوث التي يرى المقومون وجوب إجراء تعديلات أو
إضافات عليها قبل نشرها تعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات
المحددة، كي يعملوا على إعدادها نهائياً للنشر.
د) البحوث المرفوضة يبلغ أصحابها من دون ضرورة إبداء
أسباب الرفض.
هـ) يمنح كل باحث نسخة واحدة من العدد الذي نشر فيه بحثه،
ومكافأة مالية.

١٢. يراعي في أسبقية النشر:

أ) البحوث المشاركة في المؤتمرات التي تقيمها جهة الإصدار.
ب) تاريخ تسلم رئيس التحرير للبحث.
ج) تاريخ تقديم البحوث التي يتم تعديلها.
د) تنوع مجالات البحوث كلما أمكن ذلك.
١٣. لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة
التحرير، إلا لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، على أن يكون
خلال مدة أسبوعين من تاريخ تسلم بحثه.
١٤. ترسل البحوث على الموقع الإلكتروني لمجلة العميد المحكمة
alameed.alkafeel.net من خلال ملئ إستمارة إرسال
البحوث.. أو تُسلم مباشرة إلى مقر المجلة على العنوان التالي:
العراق / كربلاء المقدسة / حي الحسين عليه السلام / مجمع الكفيل
الثقافي.

بسم الله الرحمن الرحيم

Republic Of Iraq
Ministry Of Higher Education &
Scientific Research
Research and Development



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
دائرة البحث والتطوير

No :

العدد : ب.ت.ع / ٢٠١٤

Date:

التاريخ : ١٢ / ٢ / ٢٠١٤



العتبة العباسية المقدسة / قسم الشؤون الفكرية والثقافية

م / مجلة العميد

تحية طيبة...

إشارة إلى رسالتكم الالكترونية الواردة بتاريخ ٢٠١٢/٣/١١ و بكتابنا المرقم ب ت ١٢٢٣١/٤ في ٢٠١٢/١٢/٢٠، ونظرا لحصول مجلتكم (مجلة العميد) على الترخيم الدولي (ISSN) الخاص بها، تقرر اعتماد المجلة اعلاه لاجراض الترقية العلمية.

...مع التقدير

أ.م.د محمد عيد عطية السراج
المدير العام لدائرة البحث والتطوير
٢٠١٢/٣/١٢

نسخة منه الى :

- البحث والتطوير / قسم الشؤون العلمية
- الصادرة

(الترقع الالكروني للدائرة) www.rddiraq.com

Email scientificdep@rddiraq.com

Tel : 7194065

الهاتف / ٦٥ ٢٠١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة العدد

الخطوة الثانية للشمعة الثالثة

حينما توقد شمعتك الثالثة، يعني أنك تقدّمت في مسيرة عمرك؛ تبدو أمامك مسؤوليات مضافة، تجعل من خطواتك نحو النجاح أكثر حذراً؛ لأنّ ما تحقّقه في المسافات الأولى من الانطلاق، يضعك قبالة ثقلين: ثقل المحافظة على ما سبق، وثقل تجاوزه لتحقيق ما هو أفضل، تأسيساً على حكمة سيد البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام: (من تساوى يوماه فهو مغبون).

يؤشر العدد العاشر مجموعة أمور؛ أولها: أنّه الخطوة الثانية في مسيرة السنة الثالثة من عمر المجلة، وثانيها: أنّه ضمّ ملفاً يعاين سيرة فعل ثقافي مهم في المسيرة الثقافية للعتبة العباسية المقدسة؛ ذلك هو (مسابقة الجود العالمية للشعر العمودي بحق أبي الفضل العباس عليه السلام) وثالثها نتاج العقول الأكاديمية التي احتضن هذا العدد بعضاً منها.

فأمّا الأمر الأول، فقد ذكرنا في مستهل هذه المقدمة عظم ما يليق به من ثقل على عاتق هياتي المجلة؛ للمحافظة على ماكان، و الارتقاء فيما هو كائن و ما سيكون.

و أما الأمر الثاني، فهو عين على عين؛ لأن انعدام المراقبة لأفعال التنافس، ولا سيما الإبداعية منها، يحوّل الفعل من فعل حركي متنام، إلى حدث سكوني رتيب؛ لذا استقبلت المجلة كتابات باحثين أشروا مواطن الفعل الثقافي في المسابقة بنفس حضاري حيادي.

وأما الأمر الثالث؛ ففيه صوت ذو عمق أول، كنّا قد صدحنّا به ومازلنا، مفاده: أنّ المجلة مستمرة بما تكتبون، وحلّتْها بهية بأقلامكم. ولنا أن نختم بوعد قاربنا على قطاف تحقيقه؛ ذلك هو: أنّ المجلة ستتحول إلى مجلّة عالمية رصينة على غرار الـ Impact Factor: عامل التأثير الدولي؛ لتحقق لكتّابها وباحثيها ودارسيها أهبى ملامح الارتقاء، كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ثقافة التنافس وفاعلية التنمية الإبداعية (مسابقة الجود أنموذجاً)	٢١
أ. م. د. علاء جبر الموسوي الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / قسم اللغة العربية	
كمون الضراة (مقاربة تحليلية للنصوص الفائزة بمسابقة الجود العالمية الأولى)	٣٧
أ. م. د. فاطمة كريم البحراني جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد / قسم اللغة العربية	
غياب الشائع من الفاظ الرثاء (قراءة في قصائد مهرجان الجود العالمي)	٦٧
أ. م. د. أحمد صبيح الكعبي جامعة كربلاء كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية مصطفى طارق عبد الأمير ماجستير لغة عربية من جامعة كربلاء	
دلالة الألفاظ القرآنية عند الإمام جعفر الصادق <small>عليه السلام</small>	٩٩
أ. م. د. أسيل متعب الجنابي / م. د. سعيد سلمان جبر كلية الآداب / جامعة واسط / قسم اللغة العربية	
الجهود الدلالية عند العلماء العرب القدماء (من بحوث مؤتمر العميد العلمي العالمي الأول)	١٢٧
م. د. إدريس بن خويا / فاطمة برماتي قسم اللغة والأدب العربي / الجامعة الإفريقية / أدرار / الجزائر	
أثر التنويريين القدامى في الأدب واللغة (الجاحظ والمبرد أنموذجاً) (من بحوث مؤتمر العميد العلمي العالمي الأول)	١٥٧
أ. م. د. وجيهة محمد المكاوي كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة / جامعة الأزهر / مصر	

البنائية البريطانية وتطبيقاتها في الانثروبولوجيا الاجتماعية (رؤية انثروبولوجية في آراء راد كليف براون)	٢٠٧
ا. م. د. علي زيدان خلف الجامعة المستنصرية / كلية الاداب / قسم الانثروبولوجيا التطبيقية	
نظرة في التعليل النحوي بين القدماء والمحدثين	٢٦٩
م. د. هاشم جعفر حسين جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية	
المسكوت عنه (دراسة نحوية دلالية)	٢٩١
م. د. حميد عبد الحمزة الفتلي جامعة بغداد / كلية الاداب / قسم اللغة العربية	
البنية الحركية في الأدب التفاعلي (قراءة في التجريب الرقمي)	٣١٩
م. د. إحسان التميمي جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد / قسم اللغة العربية	
Formal Semantics or Dual Pragmatics	15
Prof. Dr. Majeed Al-Maashta Islamic Unvercity in Hila	
Flouting and Violation of the Maxim of Quantity in Shakespeare's Hamlet	29
Dr. Muayyad Omran Chiad Univercity of Karbalaa / Faculty of education Department of English	

ملفُ العدد

مُسَابِقَةُ الْجَوْلَانِ
وَالْحَدَائِثُ الْمُنَوَّارَةُ

أثر التنويريين القدامى
في الأدب واللغة
الجاحظ والمبرد أنموذجاً

Impact of the Old Tanwyren on
Literature and Linguistics
Al-Jahadh and Al-Mabarid as Paraneils

أ.م.د. وجيهة محمد المكاوي

جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

المنصورة - جمهورية مصر العربية

Asst. Prof. Dr. Wajeha M. Al-Makawi

Al-Azhar University

College of Islamic & Arabic Education

Egypt - Almansoora

من البحوث المشاركة في

مؤتمر العميد العلمي العالمي الاول

المنعقد تحت شعار

نلتقي في رحاب العميد لترتقي

للمدة من ٢٥-٢٦ تشرين الاول ٢٠١٣م

برعاية العتبة العباسية المقدسة

A research paper taken from

Al-Ameed Journal First Global Academic
Conference under

the Auspices of General Directorate
of Holy Al-Abbas Shrine

held as of 25 to 26 -10- 2013

Under the slogan

Under the Shade of Al-Ameed

We Do Meet to Augment

ملخص البحث

قد يتوارد في أذهان كثير من جمهور المثقفين أن عصور المسلمين الأولى كانت بطبيعة تكوينها أميل إلى المحافظة والانغلاق وأن ما قدمته حضارتهم خلال قرونها الأولى كان ينصب في قالب تقليدي عقيم ينظر للماضي ويقلد اللاحق فيه السابق، ولا يستطيع أن يخلع ربة التقليد والمتابعة أو يخرج على الإطار الذي رسمه الأسلاف، ووضعوا له المعالم والأسس!

والحق أن هذا التصور - وإن وجدت له مبرراته ودواعيه - ينبغي أن نتوقف فيه، ويجب أن يعيد الباحثون النظر في تراث المسلمين الفكري في مختلف جوانبه.

وأنا هنا أركز على النتاج الفكري لعلمين من أعلام مدينة البصرة في ميدان النقد الأدبي والتنظير الفني للأساليب الأدبية والموازنة بين أجناس الأدب وفنونه وهما: أبو عثمان الجاحظ، وأبو العباس المبرد، وأولهما (وهو الجاحظ) طبقت شهرته الآفاق كاتباً أدبياً، وناقداً أريباً، ومبدعاً في ميادين شتى، والآخر (وهو المبرد) اقتصرت شهرته على التدقيق في علوم اللغة، وسأميط اللثام - في هذه الدراسة الموجزة - عن جانب آخر من جوانب مهاراته وسبقه في ميدان النقد الأدبي والبحث البلاغي.

وتجدر الإشارة إلى أنني سأكتفي في هذا السياق بالإشارات الدالة، والإلماحات الكاشفة؛ خشية الإطالة والاستطراد الذي ربما لا يتسع له المقام في مثل هذه الوريقات المحدودة، وسأدل القارئ على المظان التي يجد فيها طلبته إذا أراد الاستزادة.

Abstract

It is commonly agreed that the past is just an act of imitation to the past; the old Arabs never invent or innovate anything, they just repeat the past achievements, but the fact is that they do invent and innovate many products in different fields. So it is necessary for the researchers to take such facts which represent the Muslim ideological heritage into their consideration.

مدخل تاريخي

يجمل بنا قبل أن ندخل في صلب دراستنا أن نلم بالعصر الذي عاش فيه كل من الجاحظ والمبرد، ومما يسهل وصولنا إلى تلك الغاية أن الرجلين كليهما عاشا في زمن متقارب، بل نشأ في بيئة مكانية واحدة هي مدينة البصرة بين القرنين الثاني والثالث للهجرة. فما أبرز الملامح المؤثرة في هذه النشأة والتكوين الثقافي لكلا الرجلين؟ وما أصداء تأثير الزمان (العصر) والمكان (البيئة) في كل منهما؟

نستطيع القول إن الرجلين عاشا في العصر العباسي بمفهومه الواسع وفي أخصب فتراته على الإطلاق، وهو المائة الأولى وما بعدها بقليل، أي أن تكوينهما الثقافي والفكري والمجتمعي بل العروبي لم يتأثر بمؤثرات سلبية توالى على المراحل التالية لتلك التي اقتنصها الرجلان ولعبت الأقدار دورا ليس لأي منهما أثر فيه.

ومعلوم أن العصر العباسي قد امتد من سنة ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ. وقد زخر بالأحداث الجسام التي انعكست على الحالة الفكرية لدى دولة الخلافة الإسلامية، وأضفت على الذهنية العربية العديد من طرائق التفكير، ونظم الحياة مما لم يعرف من قبل فقد ارتفع فيه الخط البياني لنمو الحياة حتى بلغ الذروة.

فالعصر العباسي اتسم بزيادة الرقعة المكانية التي تدين بالإسلام وما ضمته من العناصر البشرية التي تنتمي إلى أجناس متعددة من الفرس والروم والبربر وغيرهم من الأجناس التي انضوت تحت لواء الإسلام، وجلبوا معهم فكرهم ورؤاهم وطرائقهم في التفكير ونهجهم الحياتي.

وقد حدث مزج بين الثقافة الإسلامية الوافدة، والثقافة العربية الأصيلة، تولدت عنه ثقافة مستنيرة عليها مسحة واضحة من سماحة الإسلام وروحانياته وهديه، وتوجيهه لإعمال العقل والانفتاح على حضارات الدنيا.

ولا ريب أن تلك الحضارة الوليدة قد بسطت مزيدا من التأثير في مختلف الأنشطة الحياتية، والأدب أكثر الأنشطة الإنسانية في سرعة تأثيره بالأجواء المحيطة، فالألفاظ العربية داخلها ألفاظ هندية وآرامية وسريانية، والمعاني تشعبت والبيئة اللغوية والأدائية للأجناس الأدبية داخلها الجديد من الأفكار والطرق الملقحة بفكر الآخرين كل ذلك، أبان عن تنوير العقل العربي وقدرته على استيعاب الآخر ليس استيعاباً منفصلاً بل استيعاب مقتدر استطاع الأدباء إذابة هذه الأشياء الوافدة في الثقافة العربية وإضفاء صبغتها عليها.

لقد أفاض الباحثون في تاريخ الحضارة الإسلامية فيما يتصل بالعلوم والثقافات في الكلام عن العصر العباسي والمؤثرات المتنوعة التي تركت بصماتها عليه، وتقسيماً تلك المراحل وسمات كل منها... إلخ، وحسبي هنا أن أقصر تناولي على ما يخص العلمين اللذين نحن بصدد الحديث عن نتاجهما الفكري في سياق بحثنا هذا.

في منتصف القرن الثاني أذنت الحياة العباسية باستبدال موقعها وتحول الحياة البصرية إلى بغداد، فقد كان هناك محرك قوى للأحداث بالحمراء والموالي. إذ استطاع الفرس بسط نفوذهم وفرض سيطرتهم على مختلف النواحي من أرقاها إلى أذناها فمجلس المناظرات والسوق تحت إمرتهم، وإذا كان الزمان هو منتصف القرن الثاني الهجري فإن المكان هو أعقد بقعة في العالم فقد ضمت طوائف وجنسيات شكل بعضها أقلية وآخرون أكثرية وتوجهوا بمختلط أفكارهم ومبادئهم إلى الشباب

وهو شباب مدرك واع يعترف بفضل الأجناس الأخرى مع الإقرار بتمايز العرب وتفوقهم، فهناك الزنج والروم والزلط، وأهل السند والبربر أو نبط لسان عربي ودماء آشورية أو عدنانية أو قحطانية.

ونظراً لطول مدة الخلافة العباسية حيث بسط التاج العباسي نفوذه ما يقرب من خمسة قرون ١٣٢-٦٥٦هـ فقد قسمه الباحثون إلى عصور، أو حقب تاريخية منفصلة.

فهناك العصر العربي لأن الخلفاء كانوا عرباً وقد شهد تطورا وتجديدا في مناحي الحياة وأنشطتها، وقد كان للعنصر الفارسي نفوذ بارز فيه، ثم عصر النفوذ التركي، وقد تركت هذه التجاذبات بين الأجناس آثارا غربية على المجتمع العربي فامتزج الفكر العربي بغيره وواجهت الذهنية العربية مثيلاتها إبداعاً وتقدماً بفضل التنوير القائم على الترجمة، التي قويت وشجع الخلفاء والرواد عليها، ومشهور أن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) كان يعطي وزن ما يترجم ذهباً كذلك فعل المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) والعصور التاريخية في حياة أمة ما هي التوقيتات التي يجمد بعدها الزمن وتتحرك مختلف الأنشطة من التقييم والتقييد رغم النظر بعين الفحص لما حواه من أحداث وما تولد عنه من مظاهر.

والتنوير والإطلاع وقفا وراء وجود قضايا كبرى شغلت الآراء في العصر العباسي الثاني مثل الدعوة إلى التجديد لمواكبة الذهنية المفتوحة، وما استتبعها من الصراع بين القديم والجديد وإن كان وجودها مع متزعميها أبي تمام والبحترى يعد إرهاصة في القرن الثاني، لكنها استكملت في القرن الثالث.

ولجأ آخرون إلى تقسيم قائم على أسس التغيير التي لحقت بالمنجز الأدبي إذ رأى أن أقساماً ثلاثة تتنازع:

- أدب الثورة التجديدية الذي بدأ ببشار وانتهي بأبي تمام وأضاءه عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون بكتاباتها.
- أدب الحركة المعاكسة بدأ بظهور أبي تمام وانتهي بظهور المتنبي ومن أهم كتابه الجاحظ والمبرد، وهما ما اكتفيت بالاستشهاد ببعض من نماذجها التي تميظ اللثام عن الذهنية العربية التي وإن احتفظت بخصائص تكوينية إلا أنها تربة جيدة لاستقبال ما استتب فيها حيث تصفي عليه خصائصها وسماها، وقد سار الأدب بوجودهما وغيرهما ذا نزعة مميزة.
- أدب الاستقرار والتدرج نحو الصنعة والزخرف يبدأ بظهور المتنبي ويتتهي بنهاية البهاء زهير ٥٨١-٦٥٦هـ^(١) ولا شك أن المستنيرين الجدد حاولوا الوصول إلى مكامن التأثير في المجتمع وانتقلت مراكز الإشعاع والتنوير من أماكنها القديمة بمكة والحجاز والمدينة ودمشق إلى معاقل جديدة استطاعت تطوير الإبداع الأدبي بتغذيته بشرايين جديدة من المترجمات والثقافات الوافدة.

التنوير الأدبي ورموزه في هذا العصر

خطا الأدب في هذا العصر خطوة أخرى نحو الارتقاء والتفرع فبدأت علومه بالاستقلال بعضها عن بعض. وكانت في العصر الماضي مختلطة يدرس الأديب النحو واللغة والأخبار والأمثال معاً. وقل من تفرغ لواحد منها إلا النحو فإنه استقل في ذلك العصر.

وظلت سائر علوم الأدب مختلطة. ففي هذا العصر أخذ علم اللغة بالاستقلال وظهر علماء اشتغلوا بتعريف الألفاظ واشتقاقها ومعانيها وترتيبها على الأبجدية

تمهيداً لوضع المعاجم التي لم تظهر ناضجة إلا في العصر العباسي الثالث.

فالأدب هنا ينقسم على ثلاثة أقسام:

١. الأدب كما هو ويدخل في الأخبار والأمثال والأشعار وغيرها.
٢. النحو.
٣. اللغة.

ولنفرد لكل منها توضيحاً كاشفاً!

كان لوجود الخلافة في بغداد الأثر الكبير في النهوض بالأدب والارتقاء بأجناسه وفنونه فقد بعد الشعراء عن جو التنافس والخصومة الذي أشعلته الأغراض السياسية بين البصرة والكوفة لوقوع بغداد وسطاً بين البداوة والحضر لذا كثر الشعراء وتنوعت موضوعاتهم.

ولأن الأدب نشاط إنساني يصاحب الإنسان رفعة وضعة، شمولاً وانحساراً، قوة ووهنا، ولأن العصر صبغ بالنشاط العقلي المغطي لكثير من النواحي الفكرية واكب الأدب ذلك فترى عصا التغيير مسته فأكسبته علامتين بارزتين: السعة والعمق، فكان للتواصل عن طريق أعلام الرواد كالجاحظ وابن قتيبة وغيرهما بالثقافات اليونانية والفارسية وغيرها فتح الأذهان وشحذ القرائح ودفع العقول إلى البحث والإطلاع والهضم ثم يستخرج المنجز المتأثر بتلك المراحل فريداً في منهجه، بديعاً في نظمه وتبدي ذلك في أشياء امتاز الأدب بها في هذا العصر أهمها:

١. أنه كان في العصر الماضي مقصوراً على النقل بلا تصرف وإنما كان هم الأديب أن يروي ما سمعه بالإسناد إلى الراوي أو سرد معانيه كما كان يفعل حماد والأصمعي وأبو عبيده.

فأصبح يتدبر تلك المرويات ويبنى عليها أو يستنتج منها حكمة أو عظة كما فعل الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما.

٢. والسبب في ذلك اتساع خبراتهم وتعودهم النظر والتدبر بما أطلعوا عليه من كتب «الأدب التي نقلت إلى العربية من الفارسية والهندية وكتب المنطق وتحليل القياس ونحوهما عن اليونانية»^(٢)

نتيجة لتغير الحال لفساد الحكومة وتوالي النكبات على العلماء والمفكرين اتسع الفكر الداعي لنشر الحكم وأخبار الزهد والزهاد وأقوال الحكماء وسير رجال العدل والحزم التي يترتب عليها العظة والاعتبار مع الحث على الاقتداء بهم لرد الناس عن غيهم وتعزية المصابين والمظلومين فأخذوا يجمعون ذلك في كتب الأدب.

٣. اهتموا بجمع شتات أخبار العرب على اختلاف مواضيعها ومآخذها في كتاب واحد أو بضعة كتب وترتيبها في أبواب مبنية على الحكمة المستفادة كما في الموشى والعقد الفريد.

٤. تغيرت وجهة الأدب في نظر الأدباء فقد كان الغرض منه بالأكثر طلب الرزق في دور الخلفاء بما كان لهؤلاء من الرغبة من الإطلاع على أخبار العرب وأشعارها وأمثالها فأصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف وقل المقتصرون عليها منهم. وانصرفت القرائح بالأكثر إلى الاشتغال في النحو واللغة ولم ينقطع للانشغال بالأدب كاملاً إلا قليلون وقد اخترنا بضعة منهم غلب عليهم الاشتغال بالأدب مع اشتغالهم بفنون أخرى من التاريخ أو السياسة أو الشعر.

أدباء العصر

زخر هذا العصر بكوكبة من حاملي مشاعل التنوير أخذوا على عاتقهم مهمة مهاجمة عناكب الجهل (والتجهيل) وأفاضوا في استيداع الأوراق وفير معارفهم، وكثيف رؤاهم، وغزير آرائهم وتعد كتبهم التي بقيت وقدّر لها أن تنجو من الضياع ضياء فجر، إذ فُقد الكثير من مؤلفاتهم ولو بقيت لنقلت الذهنية العربية نقلة كبرى في العلوم كافة، ولما تعرضت لدعاوى الجمود والتخلف فتلك المؤلفات شاهدٌ حيٌّ على ثراء لغتنا، وعمق فكرنا، ورحابة أفقنا.

الجاحظ نظرات وآراء

هو: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء من أهل البصرة وهو من هو في الفصاحة والبيان، إمام الكتاب، وهادي المفكرين، أوغل في القراءة فأمدته بمعين لا ينضب ويعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه، اشتهر بقبح خلقته وكان جده أسود اللون جمالاً لعمرو بن قلع الكناني. وقد كان «غلاماً يعيش ظروفاً مضطربة في عصر تتشابك فيه القيم» على حد قول د. أحمد كمال زكي^(٣).

وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القرينة وقوة العارضة والتفكير المنظم ما جعله من كبار أئمة الأدب. نشأ في البصرة وهي أهلة بالأدباء والنحاة، وأصحاب اللغة ونبغ في ذلك كله. وبلغ خبره إلى المتوكل وكان يبحث عن من يؤدب ولده فاستقدمه إليه في سر من رأى. فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه، وله أخبار كثيرة تتعلق بقبح منظره.

وأصيب في أواخر أيامه بالفالج النصفي فكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرص بالمقاريض ما أحس به من شدة برده! وكان قد اشتهر وذاع صيته في العالم الإسلامي فتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه فلا يمر أديب أو عالم بالبصرة إلا طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه وحينما طلبه الخليفة راجباً في حديثه اعتذر قائلاً: «وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل». وهو إمام الأدباء في عصره وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة خاصة به واشتهر بطريقة في الإنشاء تنسب إليه احتذاه فيها الأدباء فعرفت باسمه. فهو قدوة المنشئين وإمامهم في هذا العصر كما كان ابن المقفع إمامهم في

العصر العباسي الأول. يقول د. أحمد كمال زكي عنه «معلم وأديب قرأ لأرسطو وجالينوس، وفيلمون، وبطليموس، وأحاط بحياة الفرس وأساطيرهم وعرف الكثير من اليهود والنصارى تماماً كما لاحظ للعرب حياتهم وقصصهم وأخبارهم وتقاليدهم».^(٤)

والجاحظ استطاع أن يوظف ما لا يرضى عنه وفرض عليه - وهو شكله ورقة حاله - إلى ما يرضاه ويقبل عليه مختاراً وهو تميزه وتفردته والإشارة إليه فحينما تضيق به الظروف يغلق عليه بابه ويلتهم ما يتساقط في يديه من العلوم والمعارف. وحينما قال أستاذه الخليل مقولته الشهيرة «تكثرت من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ». رفض تلك المقولة قائلاً «بأن الموافقة قد تجوز من حيث المبدأ لأن الإنسان يستطيع فعلاً أن يدرّب نفسه على استيعاب ما في أي كتاب على رغم من موافقة إبراهيم بن سيار على تلك المقولة باعتبار أن القليل وحده للصدر في حين أن القليل والكثير للكتب».^(٥) مما دفع د. أحمد كمال زكي لتحليل ذهنية الجاحظ والوقوف على رؤيته للعلم «التجربة المستقاة من الذات بنفسها، وعن طريقها، من الاطلاع المستدام ورسالة العلم أيضاً في فلسفة الجاحظ هي إرسال المعلومة إلى المتلقي بأي طريقة حتى لو كانت طريقة مزج الجد بالهزل».

الجاحظية

وكان الجاحظ فضلاً عن ذلك من فضلاء المعتزلة جماعة المفكرين في ذلك العهد تلقى العلم على أبي اسحق إبراهيم بن يسار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور وكان علم الكلام قد نشأ على أثر غلق باب الفلسفة والتحذير من الإيغال فيها.

طالع الجاحظ كثيراً من كتب الفلاسفة وانفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه فيها جماعة عرفوا بالجاحظية نسبة إليه. ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية وليس فيها شيء من أفعال العباد وإنما هي طبيعية وليس للعباد كسب سوى الإرادة.

أهمية مؤلفات الجاحظ

للجاحظ منهج لا يجيد عنه، فهو يريد إرسال معلومته للمتلقي ويبغي إقبال المتلقي على سماعها ويتكلف في ذلك ما شق على غيره فتارة ينسب الكتاب لغيره إذا رأى عزوف الناس عنه ثم يقبلون عليه باعتباره راوية، وتارة يخلط الجدل بالهزل هرباً من ملل القارئ وتجنباً لسأته ويحض على ذلك قائلاً: «لو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال، لكان السفه الصراح خيراً لهم والباطل محضاً أردّ عليهم، ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه»^(١) وهو هنا يراعي نفسية المتلقي الملولة وعزوفها من الجد الصارم والحزم الذي لا يتخلف.

وهذا المنهج لا يجيد عنه أبو عثمان حتى في كتابته في موضوعات بعيدة عن التفكه والهزل كالرياضيات، فهو يرى حتمية توشيح جدها باليسير من الهزل يقول الجاحظ: «ليس ينبغي لكتب الأدب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق الحر وعلى المعاني القمعية التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل». وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فإن المختلفين مع الجاحظ قبل المتفقين معه يشهدون لحسن عرضه وبديع كتاباته يقول المسعودي وهو شيعي وقد كتب الجاحظ رسالة للمأمون «كُتِبَ الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو

صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورفضها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظاً.^(٧) ثم يشهد له بامتلاكه حساً خاصاً وحرصاً على توصيل كلامه دافعاً له «إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة».

ومع تفهمه لنفسية المتلقي تلك إلا أن ذهنيته كانت عقلانية لما ملئت به من علوم وفكر ومعارف مما حدا ببعض الباحثين بوسمه بفقر الخيال لم يكن بالرجل الفسيح الخيال ولا برجل العاطفة ولم يجد أمامه أحداً من المعاصرين ولا من اللاحقين يشبهه بل إن كثيرين من السلف من أهل صنعته حاولوا أن يقلدوه فكان مصيرهم الإخفاق الذريع ولعل الشيء الوحيد الذي يستطيع غيره من الكتاب أن يدافعه عنه هو استخدام التراث العربي بلغة تحررت كثيراً من قيود الماضين مع الارتفاع بها إلى مستوي السلامة والإتقان.^(٨)

ورؤى الجاحظ قد تظهر جلية وقد تتوارى فيما ينقل من أخبار فحينما أورد الخطبة التي رواها شعيب بن صفوان، وزاد فيها البقراطي وغيره قالوا: لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له: من الباب؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك. فقال: ويحك، ولم؟ قال: لا أدري قال: فوالله ما لهم بعدى إلا الذي يسوؤهم؟ وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثنى عليه وأوجز ثم قال: «أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود^(٩) وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد فيه الظالم عتواً، ولا نتفع بها علمناه، ولا نسأل عما جهلناه، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره^(٩) ومنهم المصلت لسيفه، المجلب بخيله ورجله، والمعلن بسره، قد أشرط لذلك نفسه^(١٠) وأوبق دينه، لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده، أو منبر

يفرعه^(١١) ولبس المتجر أن تراها لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضاً! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا! قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطع من سببه، فقصرت به الحال عن أمله فتحلي باسم القناعة وترين بلباس الزهادة! وليس من ذلك في مراح ولا معدى! وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر! فهم بين شريد ناد، وخائف منقمع، وساکت مكعوم وداع مخلص، وموجع ثكلان! قد أخلتهم التقية، وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواهم ضامزة، وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوبا! فلتكن الدنيا في عيونكم أصغر من حثالة القرظ، وقراضة الجلمين، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم! فأرفضوها ذميمة فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم».

ثم بعد ذلك عقب الجاحظ قائلاً: «وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب: منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس، وفي الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف. أشبه بكلام على رضي الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية، ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم»^(١٢).

فالجاحظ قد رأى استحالة موقف معاوية بعد أن كان شغوفاً بالدنيا متمسكاً بها صار زاهداً نابداً لها وعلى الرغم ما في الخطبة من أوجه بلاغية متعددة، ونصح

خارج من نفس خبرت الأمر وعلمت عواقبه، وحسن تقسيم في تصنيف الناس أربعة أصناف، وإرشاد لما ينبغي فعله وما يجب تركه، وغيرها إلى أن الجاحظ لم يعقب عليها باستفاضة ربما مرجع ذلك إلى الرغبة في التخفيف والميل إلى التبسيط لأنه قال بعد ذلك: «فلقرب العهد بالفصاحة أو لأنه في العصر العباسي والأذهان مثقلة بأطياف من المعارف والفنون، وجداول من الكلام فإن الكلام آنذاك لم يكن بحاجة إلى تفسير، وكانت العبارات خالية من الغموض أو الإيهام لذا في تعقيبه على الخطبة شكك في نسبتها إلى معاوية حيث أن المناسبة التي دعا معاوية الناس لها مختلفة عن صياغتها ومضمونها كذلك تصنيف الناس يحاكي تصنيف علي عليه السلام».

وعلى الرغم قيمة الخطبة لغوياً ومعنوياً إلا أن الجاحظ اكتفى بالتعليق عليها قائلاً «قال أبو عثمان: قد ذكرنا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبه صدرأً وذكرنا من خطب السلف رحمهم الله جملاً وسنذكر من مقطعات الكلام، تجاوب البلغاء ومواعظ النساك ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال ليكون ذلك أخف على القارئ وأبعد من السامة والملل ثم نعود بعد ذلك إلى الخطب المنسوبة إلى أهلها إن شاء الله. ولا قوة إلا بالله» (١٣).

وقد أورد خطباً كثيرة لكنه لم يعقب عليها وكأنه رأى أن مهمتها المنوطة بها قد وضحت ولا تحتاج إلى مزيد شرح أو إضافة تفاصيل فقد أبانت عن نفسها وأنارت عن فكرتها. يدلي الجاحظ برأيه المدعم بأقيسة وقضايا وآثار مروية، فتشبعه بالمنطق، وتعلمه الجدل، أضفى على كتاباته إضافات فارقة في الأسلوب وفي المعنى، ففي الأسلوب هناك بسط في العبارة، والعبارة بها تقطيع صوتي وترادف موسيقي. يقول أبو عثمان الجاحظ، في رسالته عن الحاسد والمحسود «وهب الله لك السلامة وأدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة».

ويسير في اقتدار بين على المزاجية والترادف واتباع الشيء بمثله والقرين بقرينه «الحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان، فمنه تولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء يكمن في الصدر كمون النار في الحجر، ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهجوم على قلبه واستمکان الحزن في جوفه وكثرة مضضه، ووسواس ضميره وتنغيض عمره وكدر نفسه ونكد لذاذة عيشه إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده ما أفاضه من عبده».

وإن كان السجع فهناك أيضاً تقطيعات دقيقة فقد تغير وجه النثر بوجود كتابات الجاحظ، فقد كان في العصر الأول قائماً على الترسل والإيجاز لكن سن الجاحظ سمات مغايرة ذات وقع وأثر فالازدواج والإطناب ميزا كتاباته حتى إنه ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة من ابتداء مستحدث وابتكار ليس له فيها سبق مثيل، على حد قول د. السباعي بيومي^(١٤) يقول في فضل الكتاب وتحديد هدف القارئ من قراءته «إنها هي رياضة وسياحة، وسماع الألفاظ ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت، وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة؛ لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلصة ولا مغتصبة، ولا دالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره، وبين اللفظ إذا عشش في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون استراقاً واغتصاباً فرق بين»! فالجاحظ في حجاجه «يركب مثل هذا المركب في كل ما يكتب ويؤلف، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائماً بتفكيره، فهو يخرج على مألوفهم ومعتادهم» على حد قول د. شوقي ضيف^(١٦).

فهو ينشد الجمال في الأداء ويركب وسائله من التوقيع الصوتي في اللفظ وتعاذل موسيقاه في اللفظ والعبارة وكان يعمد لإيجاد نوع من الترادف الفني، ومن ناحية المعنى كثير قراءات الجاحظ، وغزير معارفه أو جدت في منجزاته الأدبية الشك ففي بداية حياته حينما كان بيدع عملاً ما ينحله سهل بن هارون حتى يقبل عليه الناس ويشيع بينهم، فلم يتقبلوا فكرة رجاحة عقله وصواب منطقته للتقيصتين اللتين حواهما قبح المنظر ورقة الحال فالجاحظ كان يسقط على القضايا الهامة سواء له أو لعصره يبسط طرحها ويتناول شرحها ليسيغها بشكل حاز الجمال الفني والمضمون الفكري فيسهل استيعابها.

يحشد لذلك تلوينات عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية في تفكيره وأدائه لمعانيه متأثراً في تلك النزعة سهلاً من طرف، وبيئة المتكلمين التي تشرب طرائقهم من طرف آخر. فالجاحظ استطاع الموازنة الجامعة بين التلوينات العقلية والموسيقية «فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقي»، على حد قول د. شوقي ضيف.^(١٧)

وكان الجاحظ موسوعي الفكر ولا غرو فقد انتسب لجماعة شهر عنها الفصاحة والبلاغة حتى قيل عنها إن الكلام لهم دون سواهم وشيد بمنطقهم وطريقتهم «إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء والاعتماد على الجدل» وكانت الذهنية لا قطة لما قر وما سقط فقد كانت حافظتهم واعية للأشعار حتى إن المبرد قال «ما رأيت أفصح من أبي هذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلام بثلاثمائة بيت»، فتلك البيئة اللسنة والجدلة هي التي تلقف الجاحظ منها فصاحته وبيانه اللذين مكاناه من جني

المال وسدّ حاجاته لما أجراه عليه الكبراء (المأمون، ابن الزيات، ابن دؤاد، الصولي وغيرهم...) من أموال دفعت إليه لقاء كتاباته ومؤلفاته أو رواتب شهرية كما فعل الفتح بن خاقان وذلك حينما أبت نفسه الخضوع لنظم الدواوين وعلى قربه من كبار رجالات الدولة وجنيه ثمرة القرب، حماه لسنه وجد له من السقوط في هاوية الانتقام من الكبار فحينما ظفر به ابن دؤاد بعد تخلّصه من ابن الزيات قال له مستجلباً سمّاحته «خفض عليك - أيدك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر علي خيراً من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن في الأحدثه من أن أحسن وتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى! فعفا عنه».

فهول الموقف لم يبهته ولأن البيان سليقته فالكلام يخرج منه مستوفى مقنعا تندمج في صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقدرة على صوغ اللفظ وتجييره والاتساع به حتى يؤدي ضرورياً من التوقيع الصوتي والترادف الموسيقي، على حد قول د. شوقى ضيف.^(١٨)

الرؤية الجاحظية

ولسعة فكر الجاحظ وعمق ثقافته اصطلحت في نفسه المعاني الغزار في جدول المعرفة عامة، وتشكلت رؤى عميقة للمجالات المتعددة في السياسة والاجتماعيات والأجناس والأديان حتى إن ابن العميد قال إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضه ولم يقتصر على الثقافة العربية بل إن ثقافته المتنوعة تقحم نفسها على مؤلفاته فما يكاد يتكلم في موضوع بالعربية حتى تتزاحم المعلومات المستوحاة من الثقافات الهندية والفارسية واليونانية عن الفكرة على يراعه فينظمها كلاماً تطير حتى الآفاق شهرته يعلم العقل أولاً ثم الأدب ثانياً ولعل ثبته الطويل

في أول حيوانه يكفيننا التكرار ليعرفنا فصاحة وتوهج عقله فكتبه مرآة تنعكس عليها رؤيته الممدودة بجداول من التنوير الأممي فمطالعتة لآداب الأمم المختلفة تنسكب في شرايين عقله فتوجهه فيسكبه فكراً ممزوجاً من لفظ جميل، ومعنى بديع منكفئاً على فكر جيد، فالكتابة لديه ليست ألفاظاً مرصوفة أو معاني مجهزة تُجرُّ إليها الألفاظ، فألفاظه ومعانيه محط اهتمامه ومكمن عنايته وقد صرح بذلك حين قال «شر البلغاء من هياً رسم المعني قبل أن يهبي المعنى، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جراً ويلزقه به إلزاقاً»^(١٩) فهو لا ينتصر للفظ وكأن المعاني لا ترتدي إلا تلك الألفاظ المحفوظة ولا تحل إلا بها، يقول د. السباعي بيومي عنه: «زاول الجاحظ بتدبيح الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان إن ذكر أدب العلماء فهو آدهم وإن ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم»^(٢٠)

فجور وحيافة الألفاظ على المعني أو العكس مفقودة في كتابات الجاحظ وهو يعرف عن نفسه ذلك حتى إنه قال: «لربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة، وألفاظ شريفة فصيحة»^(٢١).

كتابات الجاحظ الفنية عكست رؤيته المستنيرة والتنويرية فقد خُطت بالكتابة العربية خطوات حيث صارت الكتابة الفنية - بكتابات الجاحظ - معاني تنسق في خلاصة، وبيان عذب فلا يعجب بلفظ فيبحث له عن معني، أو تؤثره دلالة فيلوي لها اللفظ لياً، واستتبع توجيه اهتمامه للعناية الجملة بشقي الموضوع اللفظ والمعني وكان يدعوه إلى النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب، وينتج عن ذلك مراعاة الكلام لمقتضي الحال وهي كلمة جامعة. وهذا التوازن جعل كتاباته ذات سمات موضوعي وأسلوب تعبيرى متميز فتلقفه المنطق والفلسفة والجدل واللسن على يد كوكبة من علماء عصره دفعه للعناية بأرائه وبراهينه ومقدماته ونتائجها. والإطار

العام المسكوب فيه ذلك وجزئياته الحاوية له فالتقطيعات الصوتية والتلوين العقلي، والتلوين الصوتي والواقعية والاستطراد يسيطر عليه، ليزن المعنى ليتنخب له اللفظ المكاني مما انتهى به «إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسي الصحيح لما شاهد».

رؤية الجاحظ تشكلت في أربعة مظاهر رئيسة هي: (الواقعية، الاستطراد، التلوين العقلي، التلوين الصوتي).

أولاً: الواقعية: يرى أن الأمانة والنقل عن الطبيعة سواء فما نقله ويتحدث عنه يستخدم له الألفاظ الدالة عليه حتى وإن كانت تشير إلى بعض العورات والسوءات وحينما سئل في ذلك أجاب بأن العازف عن الواقع، اللاجئ إلى التحسين والتجميل منافق داجن ونفى عن نفسه ذلك، وقال إنه ينقل مصوراً عصره ما فيه من أحداث ومحدثين ولا يغير أو يبدل إلا بقدر ما تحتاجه الكتابة الفنية لذا عدت أعماله مرجعاً حاوياً لكل أحداث عصره بمتناقضاته ومتغيراته فيه أخبار الأمراء والأشراف والكبار والحكماء كما فيه أخبار الصعاليك واللصوص، السوقة والحمقى وسجل ما حوي المجتمع من طهر ووزر، لهو وجد، ودين وزندقة، شأن العصور وشأن الأحياء فهو عدسة التقطت ما حوله بأمانة وأدته بصدق وصراحة فواقعية الجاحظ ظواهر تفرد بها.

تسجيل الواقع كما هو فلم يستعن بذاكرة التاريخ وحافظة الأذهان، بل استمد من مفكرة الواقع مادته فسجل كلام المتضادين ومواقفهم أشراف وأخساء، عقلاء ونوكى، فضلاء ولصوص، أثبت كلامهم كما نطقوا به سجله، وما عبروا به أثبتته حتى وإن حوي لحنا ظاهراً أو مخالفة جلية وعد ذلك من توابع الواقعية وإحدى التزاماته في لزوم الواقعية وعدم الزيف أو المخاتلة.

يقول مدافعاً: «وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب أو لفظاً معدولاً عن جهته فأعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه» (٢٢)

الحقيقة، التعبير بالحقيقة عزوفاً عن الاستعارات والشبهات من مستلزمات الواقعية فلم يلجأ إلى التصوير إلا ليوضح الواقع ويقربه لا ليزينه ويجمله، فالكتابة عنده معان تؤدي في دقة لا زخارف وتشبيهات تقف سجعاً تحول دون الفهم والاستيعاب للمعاني أو تحدث مخاتلة عن الوقائع والحقائق.

ومن كثرة حرصه على نقل الحقيقة بواقعيته كان يجيد التصوير ويلتقط ما حوله ويقصه بقدرة لافتة على السرد والحكي وفي وصفه وسرده نجد تفاصيل وجزئيات، حقائق ووقائع والتصوير عفوي يعكس دقة بعيدة عن التهويل والتضخيم.

ثانياً: الاستطراد: إن الخروج من باب والدخول من آخر ثم عودته إلى الأول ثم الانعطاف على جديد سمة غالبية على مؤلفات الجاحظ فمن يطالع الحيوان ثم البيان والتبيين يجد التشعب المفضي إلى التشعث مسيطراً على كتاباته، فلا يتبعه الموضوع الذي يتحدث فيه بل يمسك زمامه إلى جواره يتحدث عن أشياء أخرى وإلى جواره ينطلق إلى أبواب متنوعة.

وقد علم الجاحظ عن نفسه تلك الصفة واحتج بأنه يهرب من الملل والسامة التي تجلبها أحادية الموضوع حتى وإن حسن «فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها».

ثم يحتج ثانية بأنه يقتفي أثر المؤلفات السابقة في سير الحكماء «إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء» مبرراً انتقاله بين أفانين المعرفة وجداول

الملح، وأمهّار الأخبار والحكايات. وربما الأوقع لهذا الاستطراد أو الظاهر ما صرح به الجاحظ نفسه من رجوعه إلى العلة التي ألمت به وقلة المعاونين وفتور النفس وتقلبها إذ يقول في صدر حيوانه «قد صادف هذا الكتاب من حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أول ذلك العلة الشديدة، الثانية قلة الأعوان، طول الكتاب».

لرجاحة عقل الجاحظ وفكره المستنير خاطب المخاطب يستل سخيمة نفسه من الوجد عليه لاستطراذه المتوالي فيقول «فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكره فقد قدم لنفسه عذراً بعد أن صورت لك حالي التي ابتدأت عليها كتابي. فقد ضعف ذهنه لضعف صحته، حتى وإن كان يعرف أنه منوط به ذكر أسماء الخطباء على الترتيب ثم التفصيل والتبويب فيقول: «ولكني لما عجزت عن نظمه وتنفيذه تكلفت ذكرهم في الجملة» لكنه قدم العذر. وإن كنت أرى أنه بالإضافة إلى الاعتلال الجسدي فإن العقل كان يحمل المعارف والفنون والأخبار والحكايات فما يكاد يمسك بيراغه حتى تنثال عليه الأفكار وتتزاحم الآراء من كل حذب وصوب فتدلف إلى قلمه في غير نظام ولا سياق مطرد.

ثالثاً: التلوين الصوتي: الإيقاع والتناغم يلحظه كل مطالع لكتب الجاحظ فهو على بعده عن البديع والسجع الذي لا يتفق مع كتاباته المطولة، لكنه حريص على جمال الإيقاع المتبدّي في شيئين.

التقطيع الصوتي والتكرار والترداد الموسيقي: يقول عن الكتاب «إن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه وكان له نفعه وعلى صاحبه كده، مع تعرضه لمطاعن النحاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهاذة، وتحكيمة

فيه المتأولين الحسدة». (٢٣) فهناك اختلاف في مقاطع وتنوع وتلوين فطلب الجاحظ للجمال الموسيقي الإيقاعي دفعه إلى التكرار أو الترادف، فالموسيقي أساسية في جواهر عباراته وأعراضها وما يسمها في باطنها وظاهرها، على حد قول د. شوقي ضيف. (٢٤)

والتكرار أو الترداد أو التأكيد على الفكرة وإعادة صياغتها وقولها منهج المتكلمين في محاضراتهم وسوق أحاجيهم بمناظراتهم ليضيفوا ضرباً من الجمال على أساليبهم. فمنهج الجاحظ منهجهم وما أضفاه على أسلوبه من تقطيعات وتوقيعات وتكرار أحاط أسلوبه بهالة الأداء الموسيقي إلى جوار الأداء المعنوي.

هذا بالإضافة لتكائه على الإملاء في تسجيل كتبه أكثر من الكتابة بنفسه مما جعل بعض مواضيعه بها إفراط في العرض أو تفريط في الحصر لكن كل ذلك لم يمنع وجود تلوين صوتي أكسب أسلوبه تميزاً ملحوظاً.

رابعاً: التلوين العقلي: أو التحاسين العقلية حيث يضيف الأفكار الفلسفية والآراء العقلية والبراهين والأقيسة المنطقية إلى عمله الفني ويصنع عليها فيفيد الاتجاهين الآراء والأقيسة العقلية يتوسع في مفهومها وتتشعب دلالتها ويضاف إلى قيمتها العقلية قيم فنية طريفة كما يفيد القضية التي تتحدث عنها من إمدادها بشيات عقلية وآراء منطقية تزيدها طلاوة واقتداره على الوصول إلى المتلقي. وصرح بذلك حينها خلط أو جمع بين الفلسفة أو المنطق حين قال «ورأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين».

وقال عن الحيوان «إن هذا الكتاب أخذ من طرف الفلسفة»، فحديث الجاحظ يعكس الذهنية المستنيرة المتفهمة لما يدخله الجدل والحوار من ملاحظة وطرافة تجذب المتلقي وتسهل الإقناع والفهم.

ولا شك أن تعلمه على يد النظام وما عنته مدرسته من القدرة على المجادلة والمحاورة والاستعانة بالمنطق لتدعيم رأيه سواء أكان صحيحاً هذا المنطق أو مغلوطاً وهو ما كان سبب إصابته بالفالج حين جادل يوحنا بن ماسويه في نوع الطعام حين قدم مضيرة عقب سمك فامتنع يوحنا من الجمع بينهما فدلّف الجاحظ إلى جدله المعروف واحتمى ببرهانه اللغوي قائلاً: أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كان من طبع واحد فلنحسب أننا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا، فقال يوحنا والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وأنظر في ما يكون في غد، فما كان من الجاحظ إلا أن امثل لمنطقه المغلوط وطعم، ففلج في ليلته فقال هذه والله نتيجة القياس المحال، فالجاحظ لسن جدل يبدي الانتصار لرأيه ويتيقن إلزام الخصم بالحجة والمتلقين بالإقناع. تفكير الجاحظ قام على المنطق والاستدلال والقياس يصبه في هروب من تلاوين الصوت وتحاسينه باقتداره على الجمع بين الجمالين: جمال الصوت وجمال المنطق، فالحجج المقنعة المسوقة في أسلوب متميز.

عقلية الجاحظ عقلية منفردة جمعت بين التفكير العقلي الفاضل بالقدرة على البرهان والاستدلال مع، التفكير الفني وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت، وما ينطوي في هذا التقطيع الفني من تكرار وترداد وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظي الذي يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت، على حد قول شوقي ضيف، فالعقل عند الجاحظ المنبع الذي يمد جداول عقله وتفكيره ولسعة ثقافته وعمق إطلاعه صبغ عمله بكثافة المقابلة في المعاني والأفكار فالجمال يسيطر على التفكير ثم ينتقل للتعبير فالتجانس تام بين اللفظ الموسيقي الرشيق، والمعني العقلي الدقيق فالمتعة تعم العقل والفكر كما تقبض على الحس والشعور لدي المتلقي.

وحيثما يكتب الجاحظ فهو يبين عن ثقافة واسعة وفكر عميق يتناول الموضوع بمجسات منوعه من الناحية النفسية، والدينية، الاجتماعية يقول عن فوائد الضحك في البخلاء «وإذا كان البكاء مادام صاحبه منه فإنه في بلاه، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ» ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع. وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه، ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر كأنه يضحك ضحكا، وقد قال الله جل ذكره ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت، وأنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص.

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته، ولفضل خصال الضحك عند العربي تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطبيق. وقد ضحك النبي ﷺ وفرح، وضحك الصالحون وفرحوا، وإذا مدحوا قالوا هو ضحك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شئيم المحيا وهو مكفهر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنها وجهه بالخل منضوح وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جدا والضحك وقارا. (٢٥)

وهو فى تناوله لنحلة الضحك مهد إليها بذكر نقيضه وهو البكاء وكيف إن له من الآثار السيئة الكثير، ومن المعاقب المفجعة العديد.

تكلم على الضحك وبسط فيه القول مدلاً على أهميته من الناحية النفسية للضحك إذ إنه يفرج الهم ويجلي الصدر، والمتلقى للضحك يشرح صدره وتنشط أساريره وهو ميزة دينية ودلل على تميزها لأن المولى نسبة لنفسه حين قال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ولا ينسب للمولى إلا كل جميل نافع وهو مفيد للناحية المجتمعية حيث يعلى من شأن البهجة والمبتهجين ويطلق الأوصاف الحسان على ضاحكي الثغر متهللي الوجه.

الأسلوب

إذا أخذنا النص المتقدم المتصل بفلسفة الضحك نجد أن أسلوب الجاحظ فيه يغلب عليه الجملة الخبرية، ماعدا جملتين بكل منهما استفهام أحدهما حقيقي، والآخر خرج للتعجب مطالباً المستمع بالإقرار فيقول: فما ظنك بالضحك؟ وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً؟ أما الجمل فجاءت على غير عادة الجاحظ من المزوجة فجاءت الطويلة مضمنة نصاً قرآنياً، وحكاية عن رسول الله ﷺ وصحابته.

وكان الجاحظ فى عصر مليء بالكواكب المنيرة فى الأدب واللغة والفكر فكتب إليه أبو القاسم إسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب: «وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر، بوصف ما شاهد من عجائبه وعين من مراكبه، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها، واستجابة أدوائها لها متى نادتها، وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع، والدهر بين أخذ وترك،

والأرواح بين نجاة وهلك وإذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر، وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر، وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرتة وحصولي على مساعدته، ومن رأي بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم، لم يعتب على الدهر فيما يفيتته من منظر البحر، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله، واستعظامه لأهواله كما لا شيء أبلغ في مفاخره وأنفس في جواهره، من وصف الأستاذ له، فإني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال والسحر الحرام لا الحلال وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكره سعة صدره، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرد وثمدا لا يكثر عن الترشف. وكم من جبال جبت تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر». (٢٦)

رداً على رسالة الجاحظ له فهو يعلق على مكاتبة الجاحظ أولاً يصف البحر وفي وصفه - الذي يتحدث عنه صاحب - ينوه على عقلية الجاحظ الإحصائية والذهنية الحصرية، والقدرة التابعة حيث رصد ما يحصل للأربع مراتي البحر نفسه، وما يمور فيه من المراكب، وما يتعلق بها من آلات وما يسيرها من رياح، وما تحمله من متاع وأناس، ثم يتطرق للحالة النفسية التي تسود المسافرين فالطمع يدفعهم لاحتمال الأهوال أملاً في عطايه ونواله، والجزء الثاني قفزة سريعة من وصف البحر المائي إلى البحر العلمي لأستاذه الجاحظ حيث ضمن الكلام تهوينا من شأن البحر الحقيقي بما وعى وما منح وإن الفضل اكتسبه من مجرد الوصف المميز للأستاذ له.

ثم يتحدث عن خصال بحره العلمي - الجاحظ - بأنه غابت عنه حقيقة نفسه وغفل عن درجة كماله ولو أدرك ذلك ووعاه وفهمه وأحصاه لتبين له أن البحر إلى جواره الماء القليل الذي ينفذ بالاستعمال والأخذ منه.

سمات كتابات الجاحظ

لم يشرع الجاحظ فى تسجيل فكره ورصد آرائه وأقواله إلا بعد استواء أفكاره وانتظام آرائه وأقواله فىما دونه فى كتبه ومؤلفاته بحيث لا يظهر فىها أثر لتبدل الأفكار أو تعارض النظريات، مما جعل لتراثه تلك الخاصية الفريدة التى تتمثل فى سريان روحه وبروز شخصيته ومزاجه ووضوح بصماته التى تبدو وبجلاء فى كل ما كتب على تنوعه وتشعب فنون. على حد قول د. أحمد عبد الغفار عبيد. (٢٧)

إن الجاحظ صاحب فكر مستنير وعقل متحرر وقد أفاد من فكره وعقله بالإضافة إلى ذوقه اللامح وخبرته الطويلة بتراث العرب الأدبى، وإطلاعه على آداب الأمم المتصلة بهم فظهر أثر كل ذلك فى الأصول التى قررها ومنحها تلك الخاصية الفريدة.

كتابات الجاحظ وآراؤه النوعية تنبض بعبقرية المكان فقد تكلم على كثير من المسائل اللغوية، والبصرة كانت محل علماء الكلام وتأريخه لكثير من الظواهر الأدبية التى نبتت فى البصرة وكتاباته عن الشعراء وتحليله لهم وآراؤه فىهم دال على انكفائه على المحصول المروى لهم والذى يتناقل فى البيئة البصرية ويذاع انتقال النار، طريقة عرضه تتسم بالعقلانية وسوق مقدمات لا بد أن تفضى إلى نتائج يدل على تأثيره بمنهج علم الكلام الذى نبت فى البصرة.

أفاض الجاحظ فى الحديث عن الكتابة والخطابة والشعر ويستشهد بهذه الأنواع فى كتاباته موضحاً السمات المشتركة بهم وكان دائماً يردد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

على الرغم أن الشعر مستودع الأحاسيس والاهتمام به توالى عبر العصور، إلا أن الجاحظ صرف جل اهتمامه وعنايته للخطابة والكتابة. وأرى أن السبب الحقيقي هو الفسحة التي يبيحها النوعان الأدبيان لاستعراض ثقافة الجاحظ المنوعة الاتجاهات العميقة الجذور، مما يعكس رؤيته التنويرية. المنبع الذي يصدر عنه الجاحظ محددًا وواضحاً ويصب في جداول منوعة، لذا نراه حينها يسوق الرؤية النقدية يعززها ببيت شعري، أو قصة أو حدث ما.

استغرق النقاد قبل الجاحظ المدارس والأجواء الثقافية المسيطرة في عصره كما حدث مع الأصمعي وابن سلام حينما تبدى تأثيرهما بالبيئة اللغوية والنحوية، الذي تبدي في مؤلفاتها الحاوية لأرائها الفكرية، لكن الجاحظ بفضته وذكائه استفاد من الثقافات المنوعة حوله في نظم رؤيته النقدية التي وسمت بالسعة والعمق واستقصاء الظاهرة الأدبية والحكم عليها والتعليل لمظاهرها الموسوعية التي تمتع بها الجاحظ، والثقافة المنوعة التي اتخذت من عقله مكاناً ومقراً مكناه من امتلاك ما تفرد من الخصال وما يمتاز من الصفات، وهو يحدد موضوعه ثم يبدأ في صوغه وحوكه بشكل متميز، ولاشك أن التنوير يرتبط بالإبانة، والإبانة والفصاحة لا بد أن يمتلكهما من حمل على عضده مهمة فتح القلوب الغلف، والأعين العمي، والأذان الصم، لذا كان يتوسل بكل شيء وأي شيء ليجذب المطلعين على أعماله فتارة ينسبها لغيره ويتحدث بها كأنه راويها، وتارة أخرى يدعي سقوط الموضوع بين يديه وأنه قائم على نشره.

لذا حديثه عن البلاغة لم يأت دفعة واحدة، ولم يتناولها مرة واحدة، ويثها دفعة واحدة في إحدى في مؤلفاته بل نجدها متناثرة في مؤلفاته، قال أبو عثمان^(٢٨):
«والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من

معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هذه الأتان؟ قل: أركبها وتلدني وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً.

وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي حين قال لأهل مجلسه: «ما من شر من دين» وأنه قال حين قيل له: ولم ذاك يا أبا فلان؟ قال: «من جري يتعلقون» وما نشك أنه قد ذهب مذهباً، وأنه كما قال: «وقد فهمنا معنى قول أبي الجهمير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ قال: «شريكنا في هوازها، وشريكنا في مداينها. وكما تجئ تكون»، قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطاء وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن، يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها. وقلت لخادم لي: في أي صناعة أسلموا هذا الغلام؟ قال: «في أصحاب سند نعال» يريد: في أصحاب النعال السندية. وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذي دونه: «اكتب لي قل خطين وريحني منه».

فالجاحظ استطاع إيجاد طريقة جديدة في النثر من تقسيم الجملة لقطع صغيرة كالشعر، وأدخل الدعاء «وليس حفظك الله مضره سلاطة اللسان عند المنازعة، وقد سلك الكثيرون ممن أتوا بعده مسلكان من تقطيع الجمل وتصدير الدعاء للمتلقي يقول حمزة الأصفهاني في مقدمة ديوان أبي نواس الذي جمعه. سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى آمالك فهو يدل على اقتفائه أثر الجاحظ والسير على منهجه يقول جورج زيدان وهذا الأسلوب في الإنشاء ينسب إلى الجاحظ وقد توخاه معاصروه فنسجوا على منواله». (٢٩)

ثم يشرح الجاحظ محاولاً تنوير الفكرة وتضويئها بشكل أوضح حيث شعر بحسه الفني، وثقافته اللغوية، وحسه المجتمعي أن الموضوع يحتاج إلى إضافة شرح ومزيد تفصيل فيقول: «فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بياناً. وكيف يكون ذلك كله بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفساد من الكلام، لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلي، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأننا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحمحة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته. وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع».

كذلك الخطابة إذا كانت البلاغة مرتبطة لحد كبير على المتكلم من قدرته على التنوير، واستطاعته الإبانة فالبلاغة هي استنباط الأسس والمعايير الجيدة وتحديدده بحيث يتمكن شدة الأدب بعد تطبيقها من إنتاج أدب جيد وهي مختلفة عن النقد الذي يتبع النتاج الأدبي ويرصد أوجه التقصير والكمال ويضع تلك النماذج أمام المهتمين أدباء، نقاد، قراء، لتعريفهم بالنماذج العليا.

نجد الخطابة بوصفه فناً قولياً تتوسع في دائرتها التنويرية بشكل أكبر إذ ترتبط بعناصر متعددة وكل عنصر علق به معايير كثيرة فبالنسبة للخطيب أوضح سمته وسماته صورته ومنطقه وبالنسبة للمخاطبين أوجب ضرورة مراعاتهم ثقافياً ومكانياً زمانياً وذهنياً فلا يخرج عن إطار اهتماماتهم ولا يتعالى في خطبته على فهمهم ولا يخوض في قضايا لا تخصهم أو لا تكون محط اهتمامهم، كذلك لكي تقوم الخطبة بدورها التنويري لا بد أن تكون سليمة من الأخطاء مرتبة الأفكار مزينة بالقرآن

والحديث والشعر، ومن عرضه للخطابة تناول نماذجه بشكل انتقائي من خطب
للسول والصحابة. والملاحظ أنه أورد خطباً كثيرة لكن تعليقه عليها لم يكن يوازنها
ربما لأن أدرك أن الخطبة آنذاك منيرة مفصحة عن نفسها فلا لفظ غامض ولا معنى
متوارٍ.

المبرد والثقافة العربية

ولد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، الثمالي الأزدي المعروف بالمبرد سنة عشر ومائتين بالبصرة، ونشأ وتلمذ على يد جلة اللغويين والأدباء مثل المازني، والسجستاني، فشب والمسائل اللغوية قد تقرر، والقضايا قد استقصيت واشتد عود المذهب البصري منتصباً متحدياً، فأوغل فيه المبرد ناهلاً ومستوعباً، ولا غرو فقد ترك السابقون رصيماً لغوياً منوعاً في الأفراد والتركيب ولم يدخروا جهداً في جمعها من شفاه الأعراب أو استقصاءً من البوادي.

المبرد ينتمي إلى المدرسة البصرية، فلا غرو أن تكون الناحية اللغوية والنحوية الصرفية ذات بال في حديثه لكن ذلك لم يجل دون وجود لفتات فنية بارعة، ولمحات نقدية صائبة فرغم سيطرة الجانب اللغوي إلا أن آراءه تلك تعكس وجود حاسة نقدية متذوقة تنفعل بالجمال وتهتدي إلى موضعه، على حد قول د. أحمد عبيد.^(٣٠)

امتلك المبرد خصالاً فريدة مكنته من إفحام الخصوم وغلبة المتناظرين ولم يكن أحادي المعرفة، غابت عنه أشياء وعلم شيئاً بل كان يتحدث في كل شيء وعن أي شيء حتى إن الرياح بأنواعها أحاط بها علماً وحدد أسماءها طبقاً لمكان هبوبها وانطلاقها في جمال لفظ وقوة عبارة وإحصاء للأقسام يقول المبرد في الكامل بعنوان الرياح ومواقعها: «ولهذه الرياح أسماء كثيرة، وأحكام في العربية، لأن بعضهم يجعلها نعوتاً، وبعضهم يجعلها أسماء، وكذلك مصادرها تحتاج إلى الشرح والتفسير، ونحن ذاكرون ذلك في عقب هذا الباب إن شاء الله».

يقال: جنبت الريح جنوباً، وشملت شمولاً، ودبرت دبوراً، وصبت صبواً
وسمت سموماً، وحرّت حروراً، مضمومات الأوائل. فإذا أردت الأسماء فتحت
أوائلها، فقلت: جنوب، وشمول، وسموم ودبور، وحرور.

ولم يأت من المصادر شيء مفتوح الأول، إلا أشياء يسيرة، قالوا: توصأت
وضوءاً حسناً وتطهرت طهوراً وأولعت بشيء ولوعاً، وإن عليه لقبولاً، ووقدت
النار وقوداً، وأكثرهم يجعل الوقود الحطب، والوقود المصدر. ويقال: الشمال، على
لغات ست، يقال: شمال، وشمأل، وشمال. ويقال للشمال: الجربياء، قال ابن أحمـر:

بجو من قسا ذفز الخزامى داعى الجربياء به الحنينا

ويقال للجنوب: الأزيب. ويقال للصبأ: القبول، وبعضهم يجعله للجنوب،
وهو في الصبا أشهر، بل هو القول الصحيح والإير، والهير والأير، والهير، قال
الشاعر «مطاعيم أيسار إذا الهير هبت». (٣١)

لكي ينير فكرته ويوضئها أمدّها بكل ما تحتاج فالأبيات التي يستشهد بها غزار،
وهناك لمحات صرفية تبين أن اختلاف شكل آخر الكلمات يغير المعنى يقال جنت:
حزور فلم يخف عليه اختلاف المعنى لاختلاف المبني ووضوحه. ثم يتوسع في شرح
معاني رياح الشمال الجنوب الصبا وقد ضوء ذلك بأسلوب جيد.

وتناول الكامل يختلف باختلاف الموضوع فقد يظل على وتيرة واحدة في تناول
حيث يفحص زاوية فيركز على التعبير الصرفي وربما يربط بين الصرف والمعنى يقول
من أخبار لبيد.

وكان لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب شريفاً في الجاهلية والإسلام
قد نذر ألا تهب الصبا إلا نحر وأطعم حتى تنقضي. فهبت في الإسلام وهو بالكوفة

مقتر مملق، فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف - وكان واليها لعثمان بن عفان وكان أخاه لأمه، وأمها أروى بنت كرز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب، فخطب الناس وقال: إنكم قد عرفتم نذر أبي عقيل، وما وكد على نفسه، فأعينوا أحاكم، ثم نزل فبعث إليه بمائة ناقة وبعث الناس، ففضى نذره ففي ذلك تقول ابنة لبيد:

إذا هبت رياح أبي عقيل دعوانا عند هبتها الوليدا

ومن جعل الشمال والجنوب أسماء لم يصرفها إذا سمي بشيء منها رجل، لأنك إذا سميت رجلاً مذكراً باسم مؤنث على أربعة أحرف فصاعداً لا علامة للتأنيث فيه لم تصرفه في المعرفة وصرفته في النكرة، نحو عناق، وأتان، وعقرب. وإن كان نعنا انصرف، لأنك إذا سميت رجلاً مذكراً بنعت مؤنث لا علامة فيه صرفته لأنه مذكر نعت به المؤنث. نحو حائض. وطالق. ومتمم ومرضع.^(٣٢)

وقد اتسم المبرد بخصال فريدة في تناول الموضوع، أعانه على ذلك ذاكرة حافظة لاقطة تعكس ثقافة مستنيرة أحاطت بكثير من المعارف والفنون، وهذه الذاكرة لفتت نظر كثيرين، فاتهم في صدقه حتى انتصب مجموعة له ليلوا صدقه، حدثني أبو عبد الله بن المفجع قال: كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه فيها يتهم بالكذب فتواضعنا على مسألة لا أصل لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب وكنا قبل ذلك قد تمارينا في عروض بيت الشاعر «أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا». فقال بعضنا هو من البحر الفلاني وقال آخرون هو من البحر الفلاني فقطعناه وتردد على أفوانها من تقطيعه (ألق بعض) فقلت له أنبتنا - أيدك الله - ما القبعص عند العرب؟ فقال المبرد القطن: يصدق ذلك قول أعرابي: «كأن سنامها حشي القبعصا».

قال فقلت لأصحابي هو ذا ترون الجواب والشاهد إن كان صحيحاً فهو عجيب وإن كان اختلق الجواب وعمل الشاهد فهو أعجب^(٣٣)!

ولغزارة علم أبي العباس المبرد وسعة ثقافته ورؤيته التنويرية أفاض في مختلف المعارف وشتى العلوم فله مؤلفات تبلغ نيفاً وأربعين كتاباً وقيل وصلت للخمسين معظمها في اللغة والنحو ويكفي أنه عكف على كتاب سيبويه يشرح ويستجلي مبهمه ويستنتق خافيه وأودع عصارة عقله فيما يزيد عن خمسة كتب: المدخل في سيبويه، شرح كتاب سيبويه، كتاب الرد على سيبويه: كتاب الزيادة المترعة من كتاب سيبويه، معني كتاب سيبويه، فقد أمتلك رؤية محددة ساقها في مؤلفاته، فوجود المبرد كان ممثلاً لوجود الناقد اللغوي الممتلئ بالثقافة القديمة، والمعروف أن تلك الحقة حفلت بأعلام ذوي مشارب متباينة فيهم اللغوي المشبع بروح القديم كأبي العباس المبرد أو المتكلم المتأثر بشتى ألوان الثقافات كالجاحظ وذو الثقافة الإسلامية الخالصة كابن قتيبة والشاعر المحدث كابن المعتز. على حد قول د. إحسان عباس.^(٢)

ومما زاد في شهرته ووسع في معرفته تداول كتاب الكامل في اللغة والأدب الذي استوعب فكره وآراءه ولاشك أن طابع التعليم والتلقين وشرح المسائل وتيسير القواعد وتوضيح الأصول غلب على تراث المبرد. على حد قول د. أحمد عبيد.

وإن كنت أرى أنه في ذلك منتهجاً للنهج وملتزمًا الجادة التي سلكها غيره، وقيل إنه أطلق عليه لقب المبرد حينما سأله المازني عن بعض مسائل كتاب الألف واللام فأجاب بأحسن جواب فقال له المازني «قم فأنت المبرد أي المثبت للحق» فحرفه الكوفيون وفتحوا الرءاء.

ونظرته الاستباقية تلك وعقله المتفتح مكناه من إيجاد مسائل وقضايا لم يسبق إليها بل تعاور عليها بعده العلماء بالتنظيم والتصنيف والتبويب والترتيب فقد ساقها

بأسلوب حديث جذاب من خلال إطار يميل إلى ناحية المعنى المحدث وبمعنى آخر أن شواهد المحدثين لقيت منه رعاية خاصة. على حد قول د. محمد عبد المطلب. (٣٣) فقد استطاع المبرد أن يطلعنا على ثقافته من خلال حشد معارف جمّة وشرحها في أقدم مؤلف ولا تزال المبادئ والأصول التي صدر عنها المبرد في هذه المسائل مرعية ومعترفاً بها لدى المحدثين في كتاباتهم ودراساتهم. على حد قول د. أحمد عبيد. (٣٤) فلاشك أنه سبق إليها ورسم معالمها ومما زادها قيمة تذييله لها بالشرح والتعليل والتعليق، فلم يكتف بمجرد الرواية بل إن عقله المستنير أبى إلا أن يظهر في تعليقاته المركزة الجليلة المفصحة عن الذهنية العربية المستنيرة، فالمبرد ناقد للأدب فاقه لحقائقه متوفر على أصوله. على حد قول د. أحمد عبيد. (٣٥)

وتبنى المبرد معياراً محايداً في النقد وهو الإجابة سواء أكانت صادرة من القديم أو الجديد يقول «وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كل ما يستحق». (٦٣)

ويتبنى هذا الرأي وهو أكثر النقاد الذين أنصفوا المحدثين بنظرة استباقية وقد تنازعت ثقافته الأصيلة فنجدته يميل قليلاً للقديم إلا أن د. إحسان عباس التمس له العذر «ولابد أن تعذر المبرد إذا هو مال لا شعورياً نحو القديم لأنه صلب ثقافة نحوي لغوي من طرازه». (٦٤)

ومما يذكر للمبرد رؤيته النقدية الثابتة حين سئل عن بلاغة كل من الشعر والشعر اتخذ ذلك منطلقاً ينير الفكرة ويضوئها فهو لم يصدر حكماً ولم يتسرع بإبداء الرأي بل أفاض في بسط القضية مكتملة الأركان يقول المبرد: الجواب فيما سألت: أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقارنة أختها ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول

فإن استوى هذا في الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً فلم يفضل أحد القسمين صاحبه فصاحب الكلام المرصوف المسمى شعراً أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه وزاد وزناً والوزن يحمل على الضرورة والقافية تضطر إلى الحيلة.^(٣٦) وبهذا الكلام الواضح والمنطق السهل يشرح المبرد رأيه في هذه القضية ثم يأخذ في سرد الأمثلة التي توضحها وتقررهما يقول: «فأما الكلام المنثور والموزون فسأخبرك بما جاء منهما في معنى وفضل أحدهما بما رسمنا على صاحبه. قال قائل للفضل بن الربيع ابن خثيم عندما رُئي من اجتهاده وإغراقه في العبادة وانهماكه في الصوم والصلاة وسائر سبل الخير: قتلت نفسك فقال: راحتها أطلب، فهذا كلام محيط بالمعنى لا فضل فيه عنه، وقال أحد الشعراء لأهله في هذا المعنى:

إذا هبت رياح أبي عقيل دعوانا عند هبتها الوليدا

يقول: اغترب فاكسب ما يطول به مقامي معكم وقربي منكم فهذا أحسن والأول أوضح ومثل ذلك قول الأول:

تقول سليمي لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

وهذا الثاني واضح حسن وهو أبين من البيت الأول وقيل لروح ابن حاتم بن قبيصة وهو واقف على باب المنصور في الشمس فقال: ليطول وقوفي في الظل. فهذا كلام مكشوف واضح كانكشاف كلام الربيع. وأملح ما جاء في هذا المعنى وأحسن قولاً قول أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي:

ألفه النحيب كم افتراق أطل فكان داعية اجتماع

وليست فرحة الأبواب إلا لموقوف على ترح الوادع

فهذا مليح حسن والأصل ما ذكرنا».

وهذا الحكم الذي حكم به في الشعر والنثر يستثنى منه بلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وينوه بروعة القرآن والحديث وبلوغه الحد الأعلى في الفصاحة يقول: وهذا - أعزك الله - مفاضلة بين الأشكال والنظراء فإذا جاء قول الرسول ﷺ رأيت من كل منطق بائنا وعلى كل قول عاليا ولكل لفظ قاهرا. فمن ذلك أنهم قالوا في باب تصرف الزمان وتصرم الآجال أقاويل معناها واحد وقال رسول الله ﷺ فتفهم مسافة ما بين الكلامين واتضاع الأقاويل عن قوله ﷺ وإن كانت غايات من قول غيره قال لبيد بن ربيعة:

كانت قناتي لا تلين لغامز فألأنها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء
يقول: تُقربني من أجلي.

ومثله قول النمر بن توبل:

يسر الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينؤ إذا رام القيام ويحمل
وقال حميد بن ثور:

أرى بصرى قد خانني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران يوما وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيا

وفي هذا المعنى قال أبو الحسن: قيل لأعرابي: مات فلان أصح ما يكون فقال: أو صحيح من في عنقه الموت؟! وقال غيره:

إذا بلّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله

فهؤلاء كلهم محسن مجمل والفضل منهم لأوزنهم كلاماً وأسبقهم إلى المعنى، ولكن أين هذا كله من قوله ﷺ: (كفى بالسلامة داء). فانظر إلى هذا الكلام الذي لا زيادة فيه ولا نقصان لا يطول المعنى ولا يقصر عنه وانظر في فخامته وجزالته يقول كفى بالسلامة داء فأَيُّ كلام أو عَظُّ أو زجر في القلب أوقر؟ إن هذا الكلام ليَجَلُّ عن أن يبلغه وصف أو يحيط به القول ثم يكمل المبرد «إذا جاء أمر القرآن نظرت إلى الشيء الذي هو أوحد والقول الذي هو منبت ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان والداعي والبرهان وإنما وضع السراج للبصير المستضيء لا للأعمى والمتعمى». قال أحد الشعراء في قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه قولاً أجاد فيه وتقدم كلام كثير من المخلوقين فقال:

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

فهيئات هذا من قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾. وقد قال الأولون منا: «القتل أنفي للقتل» يقول إذا قتل القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل فهذا أحسن الكلام من كلام مثله، ولو اعترض معترض فقال من القتل ما يهبج القتل ويبعث عليه لكان ذلك له وإن لم يكن ما قصد له القاتل فإذا جاء قول الله عز وجل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ جاء ما لا اعتراض عليه ولا معارضة له، وقوله ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ خطر ثاب فتبارك الله الذي ليس كمثل شيء. (٣٧)

فهذه الآراء وغيرها توضح العقلية المستنيرة التي وظفت الملكة النقدية واستطاعت فهم الأدب بشكل متحرر مكنته من إدراك مواطن الجمال، وثقبت نظرتهم فيه ففهم مواطنه وأساراه عاكساً له جهداً فكرياً واضحاً يميل إلى التحليل الجزئي.

وطريقة عرضه تثبت شيئين في الشتر العربي في القرن الثالث وطرقه قضايا جديدة، رجاحة عقل المبرد العاكس لفهمه لأصول النقد مواكبة لفهمه لحقائق الأدب ومال إلى الإقناع والتدليل على رأيه يضم الجانب التطبيقي للنظري فلا يسوق رأياً إلا وزوده بما يؤيده من الأمثلة العملية وتطرق منها إلى إنزال القرآن الكريم والحديث الشريف منزلها السامي فهما النموذج للبلاغة وغيرهما من الكلام البشري يقاس بنسبة قربه أو بعده منها.

النتائج

لعلنا بعد أن طوفنا مع هذه النماذج من تنويري القرنين الثاني والثالث للهجرة من البيئة البصرية ذات الشهرة العلمية الفذة نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية:

١. حفلت بيئة البصرة بما ضمت من أقطاب كبار... أول بنية ثقافية تبدت فيها مظاهر التنوير حيث تجلى بشكل منهجي متمثلاً في ظهور قواعد للنقد العربي وتنظير لمسائله وتحديد لمعامله.

٢. استطاع العقل المستنير والفكر المنفتح على الثقافات المتعددة أن يمنح البيئة البصرية وأعلامها منهم الجاحظ والمبرد من التنظير والتعميد لمسائل متشعبة، وآراء متفرقة استطاعت تلك البنية الاهتداء لحقائق وتمحيصها وتأصيلها ليسترشدها المتأدبون والنقاد.

٣. فيما يتصل بالجاحظ رأينا كيف استطاع أن يكتسب ثقافات متنوعة، صقلت عقله وقدحت ذهنه فالعصر سحب رداءه على حاله ولا شك أن اعتناقه الفكر الاعتزالي أكسبه قدرات على الجدل والمحاجة، والانتصار للرأي وصياغة ذلك كله في عبارة موجزة ومعنى مكثف ولفظ مشرق يحمل ذهنية صافية ويعكس عقلية راجحة.

٤. استطاع الجاحظ على الرغم من هوان شأنه، وفقر أسرته أن يوظف همته السامقة في تعويض ذلك، فعاش عزيزاً حراً، منتصباً الهامة، وكانت ثروته التي يعتز بها ويعول عليها هي ثقافته الموسوعية، ومعرفته الحافلة وثقته بنفسه.

٥. لا مرأى في أن جو الحرية الذي عاشه العلماء، والتشجيع الذي لاقوه من الخلفاء والولاة والموسرين كان سببا مهما في ذلك الارتقاء الثقافي والفكري، ولعبت حرية التنقل من مكان إلى آخر دون قيود أو عوائق في إتاحة الفرص الثمينة للعلماء وشدة المعرفة أن ينهلوا من منابع العلم، ويقصدوا مراكز الإشعاع المعرفي في شتى أصقاع دولة الخلافة.

٦. برع الجاحظ في تكثيف الفكرة وخدمتها؛ إذ يمدّها بكل ما يوضح مبهمها، ويحلي غامضها، ويظهر خافيتها، جمع الجاحظ بين الجمالين، قبض الجاحظ على أزمة منابع عدة وضوح المنطق وقوة الاستدلال، والقدرة على توليد المعاني واستقصاء الفكرة، وحسن العرض وبهاء التعبير.

٧. اتسعت معارف الجاحظ واستطاع في اقتدار وتميز أن يعرضها بصورة مشوقة.

٨. حشد الجاحظ في رسائله ومؤلفاته كل ما يخدم موضوعه فنجد كلامه موشحاً بأي القرآن وأحاديث شريفة وأبيات جميلة ليقنع القارئ ويمتّع عقله وفكره.

٩. حرص الجاحظ على الملائمة في كتاباته، انطلاقاً من قدرته البيانية؛ فكان يراعي مقتضيات المخاطبين فيما يكتب أو يسطر فيعطى كلاً ما يستحق، فيستخدم اللفظ الجزل تارة، والرقيق العذب تارة أخرى، ويؤكد في غير موضع أن أحسن الكلام ما كان قليلاً يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه، وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

١٠. امتلك الجاحظ في نثره الفني مفاتيح التلوين الصوتي والقدرة على توافق الفواصل وتوازن الجمل بأسلوب عرف به ونسب إليه، فصار النقاد والدارسون يميزون هذا النمط ويقولون عندما يصادفهم أسلوب بتلك المواصفات: هذا أسلوب جاحظي!

١١. أما أبو العباس المبرد وهو النجم الثاني من نجوم هذه الدراسة فعلى الرغم من اهتماماته اللغوية لم يخل نتاجه من آراء ثابتة وسبق علمي رائع، عدّه هو ونظيره الجاحظ سابقين عصرهما، لا يقلون تجديداً وروعة فكر من رواد تأخروا عنهم في الزمن عشرات القرون.

١٢. عني المبرد بسلامة البنية وصحة العبارة اللغوية ومع ذلك فلم يبخس المحدثين حقهم، ولم يناصرهم العداء كما فعل كثيرون سواه من علماء اللغة، فترى نتاج المحدثين يحظى لديه بعناية خاصة لا باعتبارها شواهد لغوية وإنما باعتبارها قيماً دلالية تهيب لقارئها نوعاً من المتعة الفنية.

١٣. اتسم المبرد بجزئية النظرة، والميل إلى الإحصاء والاهتمام بالبنية الصرفية والأشكال النحوية، إذ استغرق كثيراً من رعايته ووقته ومع ذلك حظي الأدب والنقد منه بالاهتمام العظيم، وكثيراً ما علق على الشواهد وأسبغ عليها فكره وفهمه فقربها للمتلقي.

١٤. على الرغم من اتساع ثقافة المبرد اللغوية فإنه كان منفتح الرأي، تنويري الفكر، خاضعاً لروح العصر يجاري أحداثه ويناقش قضاياها، ويجتهد في إبداء الرأي.

١. تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري بيروت: ٣٥٨ وما بعدها بتصرف.
٢. ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي: ٣/ ١٥٢ وبعدها.
٣. الجاحظ د. كمال زكي، دار الكتاب العربي: ٥.
٤. المرجع نفسه: ١٧٨.
٥. المرجع نفسه: ٢٢ بتصرف.
٦. رسالة الترتيب والتدوير: ٥٣ نقلاً عن العصر العباسي الثاني شوقي ضيف.
٧. العصر العباسي الثاني: ٥٩٣.

٨. الجاحظ د. كمال زكي دار الكتاب العربي: ١٧٩.
٩. العنود: الجائر الطاغى.
١٠. النضيض: القليل: والوفر: المال.
١١. أشرط نفسه للأمر: أعدها وهياها. والإشراط: الإعلام بعلامة.
١٢. يفرعه: يعلوه.
١٣. البيان والتبيين: ٢/ ٥٩-٦١.
١٤. البيان والتبيين: ٢/ ٦٦.
١٥. في الأدب العربي: ٣/ ١٣٣.
١٦. الفن ومذاهبه في النثر العربي دار المعارف ط ٦: ١٥٢.
١٧. المرجع نفسه.
١٨. المرجع نفسه.
١٩. رسائل الجاحظ نقلاً عن النثر الفني: ١٦١.
٢٠. تاريخ الأدب العربي: ٣/ ١٣٢.
٢١. رسائل الجاحظ نقلاً عن النثر الفني: ١٦١.
٢٢. البخلاء: ١/ ٧٨.
٢٣. الحيوان: ١/ ١٠.
٢٤. النثر الفني: ١٧١.
٢٥. تاريخ الأدب العربي: ١٠٠-١٠١.
٢٦. تاريخ الأدب العربي: ١٠٦.
٢٧. المدرسة البصرية وجهودها في نشأة النقد في القرن الثالث الهجري: ٢٤٩.
٢٨. البيان والتبيين: ١/ ١٦١-١٦٢.
٢٩. تاريخ آداب اللغة العربية، جورج زيدان، دار الهلال: ١/ ١٨.
٣٠. المدرسة البصرية: ٢٩٦.
٣١. الكامل في اللغة والأدب: ٤٥-٤٦.
٣٢. الكامل في اللغة والأدب: ٤٨-٤٩.
٣٣. المرجع نفسه: ٢٩٨ نقلاً عن تاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٠.
٣٤. تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ط ٥، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦: ٨٩.
٣٥. جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د. محمد عبد المطلب لونجمان: ٦٩-٧٠.

٣٦. المدرسة البصرية: ٣٠٠.

٣٧. المدرسة البصرية: ٣٢١.

٣٨. الكامل: ١ / ٢٩.

٣٩. تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن الهجري
ص ٨٩ دار الثقافة بيروت ط ٥ - ١٩٨٦.

٤٠. رسالة البلاغة نقلاً عن المدرسة البصرية في النقد الأدبي د. أحمد عبيد: ٣٢٢.

٤١. رسالة البلاغة نقلاً عن المدرسة البصرية: ٣٢٤.